من تراب الطريق (٤١٩)

درينى خشبة(*) وتاريخ المسرح في ثلاثة آلاف سنة

درينى خشبة .. هل تذكرونه ؟ لقد رحل عن دنيانا منذ أكثر من نصف قرن بعد أن ملأ الدنيا بإنتاجه المتميز ، وبرحيله انقطعت الكتابات النظرية عن المسرح : تاريخه وقواعده وأصوله وفنونه .. كان درينى خشبة الأب الحقيقى للدراسات المسرحية .. درينى خشبة اسم كبير جدا فى عالم المسرح ، كان المصدر الأساسى الذى اعتمدت عليه ثقافتنا المسرحية فى الستينيات ، مؤلفا ومترجما ، ألف كتابه المتميز : «أشهر المذاهب المسرحية» ـ مشفوعا بنماذج من أشهر المسرحيات لكل مذهب .. الكلاسى ومن تطبيقاته التى أورد تلخيصا لها من المآسى اليونانية : أوديب ملكا لسوفوكليس ، ومأساة هيبوليت ليوريبدز ، ومن الملهاة : الضفادع لأرستوفان ، والتوأمان لبلوتس ، والشقيقان لتيراتس . والمذهب الكلاسى الحديث ، ومن أعلامه راسين وبيير كوردينى ، ومن مسرحياته التى لخصها : مأساة فاوست لجوته ، ومأساة وليم لشيلر .. والمذهب الرومانسى ودور مارلو وشكسبير ، والمذهب الرومانسى الحديث ومأساة هرنانى لفيكتور هوجو .. والمذهب الطبيعى وتفرعه عن المذهب الواقعى . نشأة المذهب الواقعى والفرق بينه وبين المذهب الطبيعى ، وزعماء المذهب الواقعى : ستندال وبلزاك وفلوبير ، وأعلام المذهب الطبيعى فى القصة الفرنسية : إميل زولا وموباسان وألفونس دوديه ، وتولستوى والمذهب الطبيعى فى المسرح ، ونماذج من مسرحياته

(*) المال ١١/ ٣/ ٢٠١٠ .

وغيره .. المذهب الرمزى ومسرحيات رمزية لابسن (براند ، بيرجنت) .. والمذهب التعبيرى ، سماته ومسرحية الإمبراطور جونس كنموذج له للكاتب الأمريكى أوجين أونيل .. والمذهب السريالى ، ومسرحية قلبى فى بلاد الأحلام للكاتب الأمريكى وليم ساروين .. والمذهب الصوفى ونماذج من مسرحياته الدينية والأخلاقية : مسرحيات لليدى أوجستا جريجورى ولوليم بتلر بيتس : مسرحية الساعة الرملية ، ومسرحية حيث لا شىء .. ومسرحية «كل حى» .. وهى مسرحية أخلاقية من عصر النهضة لكاتب مجهول .. والمذهب الوجودى ومن أعلامه سارتر ، ومسرحيته المعروفة : «الله والشيطان». من طرائف ما يقال أننى اشتريت هذا الكتاب المكون من ٣٢٠ صفحة بالقطع الكبير عام ١٩٦١ بجنيه واحد، فانظر كيف صارت مهمة شبابنا شاقة بالغة التكلفة لاقتناء الكتاب فى الوقت الحاضر.

ترجم درينى خشبة للمكتبة المسرحية : «عالم المسرحية» تأليف لاروس نيكول، ونشرت الترجمة ١٩٥٨ فى ٤٠٠ صفحة ، وكتاب : «فى الفن المسرحى» تأليف إدوارد جوردون كريج ، وصدرت طبعته الثانية ١٩٦٠ برقم (٦٣) بجنيه واحد ضمن مجمـوعة الألف كتاب (الأولى) ، وترجم الكتاب الذى أحدثك عنه اليوم : «تاريخ المسرح فى ثلاثة آلاف سنة «لشلدون تشينى ـ الجزء الأول فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ـ ١٩٦٣ .

من حسن الحظ أنه قبل رحيل درينى خشبة أتحف المكتبة المسرحية العربية بترجمة شاملة للمجلد الأول لهذا الكتاب للناقد المسرحى الأمريكى المعروف شلدون تشينى : «تاريخ المسرح فى ثلاثة آلاف سنة» .. كان فى نية درينى خشبة أن يتبعه بترجمة المجلد الثانى لولا أن وافته المنية ، وكان ظنى أن يتسلم أحد الراية ويتابع استكمال هذا العمل الجليل .

على كثرة الكتب التى وضعت عن المسرح ، فلم يجمع كتاب من فنونه ما جمعه كتاب شلدون تشينى الذى ترجمه لنا درينى خشبة . هو خيط عام ضم كل فنون المسرح وأساسه وخلفيته وعناصره عبر ثلاثة آلاف سنة .. وهى على تعددها فنون متكاملة .. يكمل بعضها بعضا .. ولا يمكن أن ينفصم أحدها عن باقى العناصر .

الممثل هو أول من يطالعه المتفرج على المسرح .. هذا الممثل ليس محض موهبة فى التشخيص أو التمثيل ، بل يحتاج الممثل المسرحى الحقيقى إلى معرفة جيدة بتاريخ المسرح منذ نشأته ، وبنشأة وتطور التمثيل فيه منذ كان رقصا بدائيا وإنشادًا بدائيا .. وتطوره بعد ذلك خطوة خطوة إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن .. لم يكن هذا التطور منفصلا عن تطور المسرحية ذاتها وما طرأ عليها فى كل عصر حتى العصر الحاضر .

إلمام المخرج المسرحى بذلك كله ، يجب أن يكون أعرض .. فعلى أكتافه يقوم تجسيد كافة الأدوار والعناصر المسرحية ، فهو المهندس المسرحى الأكبر الذى يرسم كل شىء ، ويضع لكل حركة تقديرها ووسائلها ومصاحباتها ومؤثراتها ، ويخلق الجو الذى تعيش فيه كلها .. المنصة ، صالة المتفرجين ، ومضات الإضاءة ، الديكور ، هندسة الصوت ، المؤثرات .. وغير ذلك كثير يحتاج من المخرج أن يكون على إلمام بتطور فنون المسرح فى كل ذلك عبر عصور التاريخ المسرحى .. كذلك مساعدوه وأعوانه حتى عمال النظافة .. فكل واحد من هذا العالم المشغول بتجسيد وتهيئة المسرحية ، ينبغى أن يعرف صلة التمثيل بالمنظر ، والمنظر بالإضاءة ، وصلة الإضاءة والمنظر والتمثيل ـ بخلق المزاج النفسى والجو العام .. وصلة الحركة التى تجرى وسط هذا كله بهذا كله .

كاتب المسرح لا يمكن أن ينهض بكتابة المسرحية ما لم يكن ملما بكل هذه العناصر والفنون .. لن يكون بمستطاعه أن يصل بغير ذلك إلى روح الفن المسرحى المتكامل ، ولا إلى كتابة المسرحية الفنية والمتكاملة التى يربط التناسب بين أجزائها .. لذلك كان أعظم كتاب المسرح هم الذين شبوا فى أكنافه وتربوا فى أحضانه ونهلوا مباشرة من موارده .. ويكفيك أن تتابع اهتمامات توفيق الحكيم المبكرة بكواليس المسرح ، أو نشأة بديع خيرى وأترابه فى أكناف المسرح ، لتقتنع بأن الكاتب المسرحى هو ابن للتربة المسرحية إن جاز التعبير .

لا يكتب الكاتب المسرحى منفصلا عن عناصر المسرح وأطرافه وإمكانياته .. تجد فى حسبانه كل صغيرة وكبيرة مما يمكن أو لا يمكن تنفيذه على منصة المسرح .. الكل حاضر فى وجدانه وهو يخط كل فصل وكل مشهد : المنصة ، الديكور ، الإضاءة ، المؤثرات ، الممثل ، المصور ، المصمم ، المهندس ، الملقن ..

فى إحاطة شاملة قدم كتاب «تاريخ المسرح فى ثلاثة آلاف سنة «ـ موكبا حاشدا لتطور المسرحية والتمثيل والإخراج والمناظر المسرحية ، وعن تطور المذاهب الفنية والفلسفية المختلفة التى طرأت على هذا كله عبر ثلاثة آلاف سنة ، رابطا بين هذه العناصر ربطا شائقا يضم عشرات الصور والرسوم التى تزيد البحث بيانا وتقدم صورة حية لما حفل به هذا التاريخ الحاشد الضخم من أحداث وتطورات ، عبر الزمان والمكان .

خذ الممثل مثلا .. هذا الوسيط الإنسانى الذى تحدثنا المسرحية بلسانه ، والذى يضفى على الفن نضرته وعمقه وإنسانيته .. إن تاريخ الممثل فى العمل

المسرحى شاهد على كونه جسرا عبر بالعمل المسرحى من ماضيه السحيق إلى الحاضر ، وقصته فى التمثيل توضح حقائق تنطبق على جميع الفنون المسرحية ، ويستشهد تشينى على ذلك بالمحاولات التى بلغت حد المروق عن الطرق التقليدية للاتجاه نحو المذهب الطبيعى ، والتى يلاحظها المتابع للمسرح اليونانى كما يلاحظها فى غيره .

ففى بلاد اليونان كان فن التمثيل المسرحى يتألف من فخامة آسرة فى الإشارة والحركة مضافًا إليها جمال النطق والإلقاء الصحيح السليم ، مصحوبا بالتأنى والقوة .. وعلى مسرح واسع شاسع ، يختبئ وجه الممثل تحت قناع فضلا عن الملابس الفضفاضة الثقيلة والأحذية ذات النعال الكبيرة .

ومع تغير هذه الأحوال ، ومجىء الأنـوار الكهربائية آخر الأمر ، بدأ التمثيل المسرحى يهجر شيئا فشيئا هذه الطرق التقليدية ، ويقبل على الأسلوب الطبيعى ، ويترك التصوير الزائف المصطنع وفن المحاكاة ـ حتى وصل إلى التصوير الفوتوغرافى وصار أكثر إنسانية وأقرب إلى الواقع وأشبه بالحياة المألوفة فى زمانه .

كان هذا هو أيضا شأن المسرحية . كانت هناك ذات الهوة التى تفصل بين التمثيلية بأعماقها العاطفية التى يمكن أن ينتهى مداها ، وشعرها الجميل الشائق ، ومن قبله الرقص والإنشاد البدائيان ، واللذان كانا الخطوة الأولى نحو الفنون والبذرة الأولى للمسرح ـ وبين تمثيليات زماننا بكل مقاييسها ومعاييرها الحالية .

من نصف قرن عشت نشوة غامرة مع صفحات هذا الكتاب المشبع فى كافة فنون المسرح ، ولم أعثر ـ ولعله لم يصادفنى ـ على ترجمة المجلد الثانى لإتمام هذا العمل الجليل الذى أنجزه الأستاذ درينى خشبة من أكثر من نصف قرن ، استكمالا لهذه المهمة التى تسد فراغًا مطلوبا ملؤه فى مكتبتنا المسرحية !

*****